

الحجاج وآلياته البلاغية في الخطابة الأندلسية: "خطبة ابن الجنان الوعظية الدينية أنموذجا"

Persuasion and its rhetorical mechanisms in Andalusian rhetoric Ibn al-Jinan's religious sermon as a model

حمّامة سالم

hamama.salem@cuniv-tissemsilt.dz

جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي تسمسيلت / الجزائر

تاريخ النشر: 2022/03/31

تاريخ القبول: 2022/02/22

تاريخ الاستلام: 2021/10/30

ABSTRACT:

ملخص البحث

The sermon is a form of prose art, and this art has had a great deal of growth and prosperity in Andalusia, and we will try in this research In this research we will try to study argumentation and its rethorical It focuses on the study of speech in its rhetorical mechanisms through the sermon of Ibn Al- jinan as a case of study Indeed, the he focuses in his text on aesthetic qualities, highlighting the value of texts that contain argumentative techniques, as argumentation is an important element in ancient and modern literary texts.

Keywords: argumentation; rhetoric; Andalusian rhetoric; rhetorical mechanisms; Ibn Al-Jinan.

تعدّ الخطبة لوناً من ألوان النثر الفني، وقد أصاب هذا الفن حظاً وافراً من النمو والازدهار في الأندلس، وسنحاول في هذا البحث دراسة الحجاج وآلياته البلاغية، من خلال خطبة ابن الجنان الوعظية الدينية بوصفه نموذجاً للدراسة، وهو يركّز على دراسة الكلام في صفته الخطابية والجمالية وإبراز قيمة النصوص التي تحوي تقنيات حجاجية باعتبارها عناصر مهمة في النصوص الأدبية.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، البلاغة، الخطابة الأندلسية، الآليات البلاغية، ابن الجنان.

1. مقدمة:

اهتم العرب منذ الجاهلية بلغتهم أيما اهتمام ، فقد كانت لهم مصدر فخر وعزة وتمييز ، ولم يقتصر الأمر على ذلك العصر ، بل تعداه إلى ما بعده إثر ظهور ذاك الحدث الجلل وهو نزول القرآن العظيم ، الذي غير مسار البشرية جمعاء في شتى المجالات والعلوم ، وظهر انعكاسه على جميع التخصصات والفنون.

إنّ الاطلاع على التراث البلاغي العربي، وقراءته وفق مقاربات نقدية حديثة، يتأتى لنا فيه العديد من الاكتشافات الجديدة، من خلال التعامل الإيجابي معه، عبر دراسة منهجية تحليلية لخطاباته بأنواعها؛ الثرية والشعرية للإفادة من هذا المنجز البلاغي القديم، وإعادة بعثه من جديد، ولا يكون هذا إلا بقراءة بعض الظواهر البلاغية، وكيفية تشكّلها، وما مدى التأثيرات الفكرية والمعرفية المختلفة في الدراسات البلاغية القديمة.

ويُعتبر الحجاج من أبرز المواضيع التي اعتنت بها الدراسات الحديثة في مجال اللسانيات، باعتباره عنصراً مهماً في تحليل وتفكيك النصوص الأدبية، بفضل تقنياته وآلياته الخطابية، ذلك أن الأديب يلجأ للحجة والبرهان والدليل والإقناع في كلامه مع المتلقي، للتأثير فيه ونصحه وإرشاده للوصول للغرض المراد تحقيقه، فالنصّ الثري القديم يعدّ من أهم مقاصد الحجاج هذا الأخير الذي شكل همزة وصل بين شتى العلوم سواء البلاغة أو التداولية أو الفلسفة، وغيرها من الفنون والعلوم الأخرى، من خلال إجراءاته وآلياته الحجاجية لدراسة النصوص، وهو ما نجده في الخطاب الثري الأندلسي، الذي سنحاول اختيار نموذج منه ممثلاً في خطبة ابن الجنان الدينية الوعظية، وتطبيق الآليات الحجاجية البلاغية عليها، وقد تأسّس البحث على إشكالية مهمة حاولنا الإجابة عنها، وهي: ما هي الآليات الحجاجية البلاغية في خطبة ابن الجنان الدينية الوعظية؟

2. الحجاج والبلاغة المفهوم والعلاقة

1.2 مفهوم الحجاج:

تباينت نظرة الدارسين المعاصرين سواء العرب أو الغرب لمفهوم الحجاج بحسب تنوع زوايا النظر كالبلاغية والفلسفية واللسانية والأصولية، حيث يُعرفه الفيلسوف البلجيكي شايم بيرلمان بأنّه: "دراسة التقنيات الخطابية التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"¹، ويعرفه عبد الله صولة بأنّه "العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات، والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية"²، فالحجاج استراتيجية مهمة وآلية لا تنفصل عن أيّ خطاب ولا سيما النصوص الأدبية، لأنها خطابات إقناعية وأعمال حوارية، يمكن للمتكلم بواسطتها إقامة علاقة تخاطبية مع جمهور متلقيه

في مقام تواصل معيّن، ويهدف عن طريقها إلى إقناعه والتأثير عليه من خلال استخدام وسائل لغوية وآليات بلاغية بغية فض النزاع والتخاصم وحل الخلافات ودحضها بالحجاج والبراهين والأدلة.

2.2 مفهوم البلاغة:

يقال إنّ البلاغة هي الوصول إلى الشيء، فهي عند الجاحظ (255هـ): "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"، من خلال هذه المفاهيم يتبين أنّ الغاية من البلاغة هي توصيل الكلام إلى قلب المخاطب والتأثير فيه، وهو ما يسمى بالإبلاغية في العصر الحديث³، ومنه أخذت "البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللساني؛ لأنه يبلغ بها ما يريد" ⁴، وبالنظر لجهود العلماء في تطوير علم البلاغة وتيسيره نجد البلاغة عند السكاكي (626هـ): "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"، أما عند القزويني (739هـ)، فيقول "وأما بلاغة الكلام، فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"، فالغاية من البلاغة هي الوصول إلى قلب المتلقّي والتأثير فيه وإقناعه بما يُطرح عليه من أطروحات وأفكار ودعاوى، أو توجيه سلوكه نحو مسلك معين أو دفعه لتجنّبه.

3.2. بين الحجاج والبلاغة:

مع بيرلمان أضحت البلاغة تغطّي مجالات أخرى، إذ يقول: "إذا كانت الخطابة تقدّم لنا - عند القدماء- باعتبارها تقنية يستعملها العامي المتلهف إلى البلوغ السريع إلى الاستنتاجات، وتكوين رأي ما دون التمهيد لذلك بتحمل عناء البحث الجاد، فنحن لا نريد أن نقصر دراسة الحجاج على دراسة حجاج جمهور العوام"⁵، وهذا أصبحت بلاغة الخطاب تهتم بكل خطاب يهدف إلى تفعيل دور المخاطب، بشرط أن يكون الخطاب بعيداً عن العلم والعقل المجرد، وعلى هذا الأساس ربط بيرلمان بين الجدل والبلاغة ضمن نظريته⁶، وقد مكّنه ذلك من "إدراك الخيط الرفيع الجامع بين بلاغة أفلاطون وأرسطو من خلال المزاوجة بين الخطابة والجدل"⁷، يقول بيرلمان: "إنّنا لا نعتقد عكس ما ذهب إليه أفلاطون وأرسطو وكينتليان، وهم يحاولون أن يعثروا في البلاغة على استدلالات على شاكلة استدلالات المنطق، إنّ البلاغة هي مجرد شيء زائد وأقل يقينية، وإنّها لا تتوجه إلا إلى السذج والجهلة"⁸، ثم يسترسل قائلاً: "إنّ هناك مجالات هي مجالات الحجاج الديني، والحجاج التربوي والأخلاقي والفني والفلسفي والقانوني، حيث الحجاج هو بالضرورة بلاغي، إنّ الاستدلالات الصائبة في المنطق الصوري لا يمكن تطبيقها في المجالات التي لا تتعلق بالأحكام الصورية الخالصة، ولا بالقضايا ذات محتوى يمكن الحسم فيه باللجوء إلى التجربة"⁹؛ يبين هذا الكلام محاولة بيرلمان تصحيح مسار البلاغة من جهة، وتوسيع مجالها من جهة أخرى لتشمل عدة ميادين إنسانية، فتصبح بذلك البلاغة البيرومانية "تغطي كل المساحة التي تمتد من الخطاب اليومي إلى الأدب والفلسفة والعلوم القانونية

والعلوم الإنسانية¹⁰، فالبلغة عند بيرلمان قد تشكلت وبرزت ملامحها جليةً بعد الاستفادة من منتج التراث القديم بكل أنواعه وأثرابه، على شاكلة أرسطو وأفلاطون وغيرهم، فيما يتعلق بالجدل وعلاقته ببلغة الخطاب والإقناع، ونتج ذلك مراجعة وتقويم البلغة القديمة وفق منظور جديد سُمي بالحجاج، فأطلق عليها مصطلح آخر هو "البلغة الجديدة"¹¹، لتتحول بذلك البلغة إلى علم عام يهتم بالخطابات على أنواعها.

3. تطوّر الخطابة في الأدب الأندلسي

1.3 مفهوم الخطابة:

عُرِفَت الخطابة بتعريفات شتى، تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال، ويُعدّ مفهوم أرسطو أقدم المفاهيم؛ حيث يقول بأنها: "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"¹²، وهناك من يعرفها بأنها: "فنُّ مشافهة الجمهور، وإقناعه واستمالته، فلا بد من مشافهة، وإلا كانت كتابة أو شعراً مدوناً، ولا بد من جمهور يستمع، وإلا كان الكلام حديثاً أو وصية، ولا بد من الإقناع، وذلك بأن يوضّح الخطيب رأيه للسامعين، ويؤيده بالبراهين ليعتقده كما اعتقده، ثم لا بد من الاستمالة، والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها، ويقبض على زمام عواطفهم يتصرّف بها كيف شاء، ساراً أو مُحزناً، مُضحكاً أو مُبكياً، داعياً إلى الثورة أو إلى السكينة، وإذاً فأُسّس الخطابة: "مشافهة، وجمهور، وإقناع، واستمالة"¹³، فالخطابة هي فن مشافهة الجمهور للتأثير عليهم وإقناعهم واستمالتهم بملكة الاقتدار واستمالة القلوب.

2.3 تطوّر الخطابة في الأدب الأندلسي:

تطوّر النثر في مختلف أطوار العصر الأندلسي وعُرف في الصّدر الأول من الفتح نماذج قليلة من النثر اقتضتها ظروف الفتح، كالخطابة التي تطلبتها مناسبات سياسية ودينية، كانت تعيشها الدولة آنذاك وهذا يرجع لدواع كثيرة منها أنّهم عرب ويمتازون بفصاحة اللسان والذكاء وكثرة الحفظ، وحاجتهم للخطابة في تحميس الجند لتشجيع الفتوحات الإسلامية، والمباهاة والفخر والدعوة للقتال ضد الأسبان والمسيحيين، هذا كله ساعد في النهوض بالخطابة الأندلسية وتطوورها وازدهارها فشملت كل المجالات وشتى ألوان الحياة متنوعة بين السياسية والدينية¹⁴، وقد امتازت الخطابة الأندلسية بسهولة التراكيب وقلة الاستعارة والبعد عن التصنع والتكلف، بوضوح معانيها غير مبتذلة، تحثُّ على الأغراض الدينية ومحاربة التناصر العصبي والفتنة القبلية، لكنها سرعان ما صارت مليئة بالسجع والتّصنع والاقتباس في العهود الأخيرة للأندلسيين¹⁵، ويعدّ طارق بن زياد، والأمير عبد الرحمان الداخل والقاضي عياض ومنذر سعيد البلوطي ولسان الدين بن الخطيب، وابن الجنان موضوع دراستنا، من أشهر خطباء الأندلس¹⁶، والذين سطعوا بنجم الخطابة في سماء الأدب العربي والعالمي بعيداً.

3.3. التعريف بابن الجنان الأندلسي:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري المعروف باسم ابن الجنان¹⁷، من أهل مرسية في شرقي الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: "كان محمد راوية ضابطاً، كاتباً بليغاً وشاعراً بارعاً"¹⁸، ويقول الغبريني: "كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيهاً وكاتباً بارعاً وأديباً"¹⁹، وكان مفرطاً في القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام، ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية (سنة 625هـ)، وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، (سنة 640هـ) خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالي مرسية، وسمع به ابن خلاص صاحب سبته على الزقاق، فاستدعاه، ولبيّ دعوته، وأكرمه وحظى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبيّ نداء ربه في عشر الخميس وستمئة²⁰.

4. الحجاج وآلياته البلاغية في الخطبة الدينية الوعظية لابن الجنان

مدار هذه الخطبة وفكرتها الجوهرية هو زوال الدنيا، وحوادثها المتقلبة وأن نهايتها الموت والفناء، وهي في جملتها معان واضحة، قريبة الفهم، سهلة المأخذ، وقد صيغت في لغة عذبة لينة، اتسمت بالبساطة واليسر، إذ تأنق صاحبها في اختيار ألفاظها، وشاكل بينها وبين معانيها مشكلة قوية طبيعية، وقد سلك الخطيب في التعبير عن معانيه الأسلوب الخطابي الذي لا يستهدف في عقل المخاطب فحسب، بل إثارة عواطفه، وتحريك مشاعره، فهو يرسم صوراً متنوعة للعالم، ويعرض المعنى الواحد بأثواب مختلفة، مستعيناً في ذلك بالترداد والترادف الذي يتولد عنه بالضرورة الإطالة والإطناب، وغنى عن البيان القول بأن السجع هو الإيقاع الغالب على هذه الخطبة، وقد التزمه الخطيب في كل أجزاءها، قصد تجويد كلامه وتحسينه، وتوليد القيم الصوتية المعبرة، إذ عمد إلى تقسيم الفقرة الواحدة إلى فواصل متساوية، فتبدوا وكأنها القافية في قصيدة متنوعة القوافي، وهو سجع صادر عن طبع، لا أثر فيه لصنعه أو تكلف، استدعته طبيعة الموضوع، لأن "للأسجاع موسيقى صوتية خاصة تتناسب مع العواطف الدينية، والأداء بها يكون أبلغ تأثيراً، وأشدّ وقعاً"²¹، "...ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاول الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خدعها المموهة، وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدث الحوادث، وإمام الآلام، دار صفوها أقدار، وسلمها حرب تدار..."²².

1.4. حجاجية الاستهلال:

يعدّ هذا الأسلوب من المحسنات الكلامية في بلاغتنا العربية ضمن طيات علم البديع²³، وعرفه أبو البقاء العكبري على أنه: "رفع توهم يتولد من الكلام السابق رفعاً شبيهاً بالاستثناء"²⁴، أو إثبات ما

يتوهم نفيه، شريطة إكساء صانع الحجة حُجته المستدركة، التي أثبتتها بثوب جديد سر السامعين، لكن المعنى المستدرك ورفده بشيء من الظرافة البديعية اللطيفة المؤثرة في النفس²⁵، وهو "ما يخرج من نفي الشيء إلى إثباته هو وغيره مبالغة"²⁶، ومن هنا تنطلق وظيفة الاستدراك الحجاجية بالنقض والإثبات، وفي خضم ذلك فإن هذا النقض والرجوع عنه لا يعد غلطة، وإنما المراد بذلك "أنه أوهم الغلط وإن كان قاله عن عمد، إشارة إلى تأكد الإخبار بالثاني لأن الشيء المرجوع إليه يكون تحققه أشد"²⁷، فضلاً عن ذلك "لأن التناقض يقابل بين الفكرة وبين نقيضها"²⁸، فيصبح المعنى المستدرك بديلاً كلية ودليلاً أقوى وأدل على سابقه، وبذلك يكون المرسل قد حقق الغلبة التي قصدها في توجيه قوله متداركاً وخادمة للنتيجة المتوخاة²⁹، وبهذا يمكن القول بأن حجاجية الاستدراك، هي دلالة على بطلان رأي وإثبات صحته، ومن أمثلة الاستهلال في مدونتنا "أيها الناس، رحمكم الله تعالى، أسيخوا أسماعكم لمواعظ الأيام، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام، وأحضروا لفهم موادها أوعي القلوب وأصح الأفهام وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النّوام، ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خدعها الممّوهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدث الحوادث وإمام الآلام؛ دار صفوها أكدار، وسلمها حرب تدار، وأمنها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتصالها انقطاع وانصرام، ووجودها فناء وانعدام، وبنائها تضعضع وانهدام، ينادي كل يوم بناديه منادي الحمام، فلا قرار بهذه الغرارة ولا مقام، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام"³⁰، يحتوي النموذج الاستهلالي لنص الخطبة على مقاصد حجاجية كثيرة ومتنوعة؛ من ملفوظات (أيها الناس) نداء المراد منه لفت الانتباه، ونجد أيضاً المتكلم المفرد في قوله: (واعتبروا، وانظروا، ولا تخدعنكم، ولا تنسينكم...)، استعمل هذه الملفوظات التي تحمل في دلالتها معنى الجمع، والتقرير، والتوجيه، والارشاد، مستعيناً بذلك على ضمير المخاطب الكاف والواو، كما زحرت الخطبة بالأدوات الشرطية (إن، لو، إن)، التي دلّت على الحضور واليقظة والفطنة.

2.4. حجاجية الاستعارة:

تعتبر الاستعارة في نظرية الحجاج المعاصرة من أهم الأدوات والآليات البلاغية، باعتبارها حجة تقوم على تبين الواقع، وضبط مشاهدته، حيث تغيرت عن الشكل البلاغي أو الأسلوب القديم، وأصبحت من أهم آليات الحجاج في جميع الخطابات والأحاديث، وهي من أجمل الأساليب البيانية البلاغية وأرقها في المجاز الكلامي، تؤدي وظيفة خطابية لإيصال المعنى الحجاجي للمتلقى أو المتكلم، حيث عرّفها القاضي الجرجاني بقوله: "فأما الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام، وعليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ، وتحسين النظم والنثر"³¹، بمعنى أنها من الأساليب التي يحتاجها المرسل لتزيين كلامه وتنميته سواء أكان نثراً أم نظماً لمُحاجة المتلقي والتأثير فيه.

فلاستعارة ضرب من المجاز اللغوي، علاقته المشابهة دائماً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي³². أي أنّ الاستعارة تشبيه حُذف أحد طرفيه، وعرفها عبد القاهر الجرجاني، بقوله: "الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدلّ الشواهد على أنه اختصّ به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية"³³، فأى كلام لا يرى بأنّ الاستعارة مهمة في الحجاج هو كلام ناقص لا نُقرُّ به، فالوظيفة الأساسية للاستعارة هي الإقناع والتأثير في المتلقي، لذلك يتوخاها المرسل (الباث) لتحقيق مراده المنشود وهذا ما نسعى لتأكيدِه في بعض النماذج الاستعارية من خطبة ابن الجنان الأندلسي:

- التزهيد في الدنيا والحثُّ على الخوف والرَّهبة: إنّ موضوع الخطبة كله حثٌّ على التزهيد في الدنيا، وكشف غرورها، وهذا راجع للعهد الذي كان عليه الناس في عهد الخطيب من حب للدنيا، والتمتع بشهواتها، في الوقت الذي تسقط فيه قواعد الإسلام في الأندلس، تحت ضربات العدو الإسباني، وبذلك يتحقق الارتباط القوي بين الخطبة وموضوعها والحال الذي قيلت فيه، وهو ما أكسبها تأثيراً عظيماً في النفوس، وجعلها تعبر عن حياة الأندلسيين أصدق تعبير وأبلغ بيان، يقول: "...ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاول الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خدعها الموهَّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث الحوادث وإمام الآلام؛ دار صفوها أكرار، وسلمها حرب تدار، وأمنها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتصالها انقطاع وانصرام..."³⁴، ففي هذا النموذج مجموعة من الاستعارات، التي يحثُّ من خلالها الخطيب المستمعين على التزهيد في الدنيا والخوف والوجل منها، ففي قوله: (ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاول الأباطيل وأضغاث الأحلام...) شبه الخطيب الدنيا بالإنسان الذي يمارس الخديعة على غيره بالأباطيل والخرافات، فحذف المشبه به وترك ما يدلُّ عليه الخديعة على سبيل الاستعارة المكنية، كما أنه شبه المحسوس بغير المحسوس لإيصال المعنى المراد للمتلقى والتأثير فيه، أما في قوله: (فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث الحوادث وإمام الآلام؛ دار صفوها أكرار، وسلمها حرب تدار، وأمنها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتصالها انقطاع وانصرام...) هنا الخطيب شبه الحياة التي يعيشها الإنسان في الدنيا بالدار التي يعيش بها الإنسان فتحل به المصائب والآلام والحروب والخوف، وهذا حال الدنيا دار فناء ليست دار بقاء، فقد استعار الخطيب هذه الصفات من واقع يعيشه الإنسان إلى وصف للدنيا وحالها وأحوالها على سبيل الاستعارة المكنية، ليحقق بذلك مبتغاه وهدفه بشيء من البلاغة التي تسرُّ السامعين والمتلقين لحثهم على الترفع عن الدنيا والزَّهْد فيها.

والواقع أن نزعة الزَّهْد قد واكبت حركة الجهاد في الأندلس ضد النصارى الإسبان، فحدّر الكتاب الزهاد أهل الأندلس من الإقبال على الدنيا، والتهافت على متاعها، وحرصوهم على جهاد ديني تكون عاقبته الجنة، وثمرته ديار الخلد³⁵، يقول: "... فبُست الدار داراً لا تدارى، ولا تقيل لعائرها عثارا، ولا تقبل لمعتذر اعتذارا، ولا تقي من جورها حليفاً ولا جاراً، وليس لها من عهد ولا ذمام، كم

فتكت بقوم غافلين عنها نيام، كم نازلت بنوازلهما من قباب وخيام، كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسقام، كم رمت أغراض القلوب بمصميات³⁶ السهم، كم جردت في البرايا للمنايا من حسام، كم بددت بأكف النائبات الناهبات من عطايا حسام، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل و غلام. لا تبقي على أحد، ولا ترثي لوالد ولا ولد، ولا تخلد سروراً في خلد³⁷. الخطيب هنا يشبه الدنيا أيضاً بالإنسان الجحود الناكراً لمعروف والذي لا يقبل عثرة أخيه واعتذاره (".... فبئست الدار داراً لا تدارى، ولا تقيل لعائرها عثارا، ولا تقبل لمعتذر اعتذارا) كما شبهها بالخائن للعهد والذمم، الذي لا يحمي جاره (ولا تقي من جورها حليفاً ولا جارا، وليس لها من عهد ولا ذمام...)، فالدنيا حسبه كمن يجرّد حسامه على غفلة ليقتل من وجده أمامه دون رحمة أو شفقة، دون أن يرف له جفن، هي تلك الدنيا فازهدوا فيها واهتموا لدينكم وأمنكم.

- طلب الشفاعة من النبي: كما حثّ الخطيب الناس إلى السعي لطلب شفاعة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو ما تمثّل في دعاء الخطيب وتوسله للسّقي من الحوض المورد والفوز بشفاعة خير الأنام، والصلاة عليه خير العالمين، يقول ابن الجنان: "وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع، المشيد بذكر الأشجان المذيع، كانت وفاة هذا النبي الهادي الشّفيع... اللهم اسقنا من حوضه المورد، وشرفنا بلوائه المعقود، وشفّعه فينا في اليوم المشهود، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللّحود"³⁸. الخطيب استعار في هذه الخطبة من شهر ربيع مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ليحث المستمعين على طلب شفاعته (اللهم اسقنا من حوضه المورد، وشرفنا بلوائه المعقود، وشفّعه فينا في اليوم المشهود).

3.4. حجاجية البديع:

البديع هو أحد علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، البيان، البديع، ومنزلته عند البلاغيين والنقاد في صناعة العبارة البليغة هي: الثالثة، و"هو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة"³⁹، ويقول: صابر الحباشة في كتابه "التداولية والحجاج": "إنّ محسناً لهو حجاجي إذا كان استعماله، وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر، يبدو معتاداً في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة، وعلى العكس من ذلك، فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب، فإنّ المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة، أي باعتباره محسن أسلوب، ويعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع"⁴⁰، فهناك نوعان من المحسنات منها تزيينية أسلوبية، ومنها محسنات حجاجية تختص بالإقناع، وهي تعدّ آلية بلاغية حجاجية تستعمل للتأثير في المتلقي واستمالاته وإقناعه، وسنحاول من خلال مدونتنا الاقتصار على الطباق والسجع والجناس باعتبارهم يقومون بالعملية الحجاجية.

1.3.4 السّجع: عرّفه مصطفى المراغي بقوله: "أن تتواطأ الفاصلتان في التثّر على حرف واحد"⁴¹، حيث إنّ للسّجع شروط ذكرها أحمد مصطفى المراغي بقوله: "لا يحسن السّجع كل الحسن إلا إذا استوفى أربعة أشياء: الأول: أن تكون المفردات رشيقة أنيقة خفيفة على السمع، الثانية: أن تكون الألفاظ

خدم المعاني، إذ هي تابعة لها ، فإذا رأيت السجع لا يدين لك إلا بزيادة في اللف، أو نقصان فيه، فاعلم أنه من المتكلف الممقوت، الثالثة: أن تكون المعاني الحاصلة عند التركيب مألوفة غير مستنكرة، الرابعة: أن تدل كل واحدة من السجعتين على معنى يغير ما دلت عليه الأخرى حتى لا يكون السجع تكراراً بلا فائدة.⁴²، فهذه الشروط الأربعة ليكون السجع ظاهراً في الكلام بصورة واضحة، دقيقة، جميلة، ومفيدة لدى المتلقي، ومن السجع ما ورد في خطبة ابن الجنان:

قوله: "أصيحوا أسماعكم لمواعظ الأيام، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام، وأحضروا لفهم موادها أوعى القلوب وأصحّ الأفهام، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النّوام، ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهويل الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خدعها المموّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث الحوادث وإلالم الآلام؛ دار صفوها أكدار، وسلمها حرب تدار، وأمنها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتصالها انقطاع وانصرام، ووجودها فناء وانعدام، وبنائها تضعضع وانهدام، ينادي كل يوم بناديهما منادي الحمام، فلا قرار بهذه الغرارة⁴³ ولا مقام، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام."⁴⁴، فالسجع في المثال هو سجع موازي أو متوازي حيث اتفقت الفواصل وزناً وتقفيةً، فاتفقت كلمات: الأيام، الأحلام، الأفلام، النّوام، الأنام، الآلام... في الوزن والروي الميم، حيث أعطى السجع لهذه الحجة جرساً موسيقياً منحه جمالاً ورونقاً، وقد وضع الكاتب هذا المحسن البديعي اللفظي كحجة للتأكيد على أهمية وقيمة خطبته الوعظية التي يرسل من خلالها للمتلقي رسالة تفيد به بأن هذه الحياة مآلها الفناء وماهي إلا حرب تدار وستنتهي.

كما أن الخطبة مليئة بالسجع الذي أضفى عليها مسحة بديعية وحسناً وبراعة من ذلك قوله⁴⁵:

- فبئست الدار داراً لا تدارى، ولا تقيل لعائرها عثارا.

- لا تبقي على أحد، ولا ترثي لوالد ولا ولد، ولا تخلد سروراً في خلد، ولا يمتد فيها لأمل أمد...

فالسجع في هذه الأمثلة، إذ يحدث في الكلام إيقاعاً موسيقياً يطرب الأذان، ويأسر العقول والقلوب، فإنه يمنحه كذلك بعداً إقناعياً بفضل ما يحققه فيه من وظائف حجاجية.

2.3.4 الطّباق: يُعرّف الطّباق على أنّه الجمع بين متضادّين أو معنيين متقابلين في الملفوظات، والمطابقة في الكلام هي: الجمع بين الشّيء وضدّه في جزء من أجزاء الرّسالة أو الخطبة مثل الجمع بين السّواد والبياض، واللّيل والنّهار، والحّر والبرد⁴⁶، والطّباق والمطابقة عند السيوطي: "الجمع بين المتضادّين في الجملة وهو قسمان: حقيقي ومجازي، والثاني يسمى التكافؤ، وكل منهما إما لفظي أو معنوي، وأما طباق إيجاب أو سلب"⁴⁷، فالطّباق أو المطابقة يقوم على إيجاد علاقة خفية أو ظاهرة بين معنيين متضادّين مع وجود نوع من التناسب بينهما، للإفادة لغرض ما، ومن الطباق في خطبة ابن الجنان:

قوله: "وسلمها حرب تدار"⁴⁸، فالطَّباق هنا بين كلمة سلم وكلمة حرب، ومن المعلوم أن كلمة سلم ضدها كلمة حرب، أفاد الطَّباق هنا المعنى، وهذا ما يسمى الطباق الظاهر الذي يتوصل إليه بالتركيز، وحجاجة هذا الطَّباق تتجلى في التأكيد أن السَّلم في الحياة إنما هو حرب خفية تدور في الظَّلام، ومن الأمثلة أيضاً قوله: "كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسقام"⁴⁹، الطباق هنا بين كلمتي سلامة وداء وصحة وسقام ومعلوم أن السلامة والصحة هما تاج الحياة، أما الداء والسقام فهما موت مع الحياة، والخطيب هنا يقول بأن الدُّنيا متغيرة ومتبدلة ولا يدوم بها حال على حال، وفي هذا الطباق قيمة حجاجية تظهر في استعمال مفردات لا يظهر معناها المطلوب، إلا من خلال التركيز من قبل المتلقي وشدة ملاحظته ليجده يعبر عن زوال النعم بعد الترف وزال الصَّحة.

3.3.4 الجناس: عرّفه علي الجارم ومصطفى الأمين، بالقول "الجناس أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفان في المعنى"⁵⁰، وقال محمد عبد المنعم خفاجي و عبد العزيز شرف: "الجناس هو تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى"⁵¹، والجناس هو ثاني فن من البديع عند ابن المعتز، وقد عرّفه بقوله: "هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام"⁵²، ومن الجناس ما جاء في مدونتنا:

قول ابن الجنان: "...والحبرة عبرة.... ويحلّوا الوهد بعد المقام السَّام"⁵³ فالجناس هنا جناسٌ لاحق، حيث جانس الكاتب بين (حبرة وعبرة) وبين (المقام والسَّام) والملاحظ أن الحاء والعين يخرجان من مخرج واحد، وليس بينهما تباعد، وهذا الاختلاف أو الإبدال ورد في أول الكلمة، وهو يسمى بالجناس المضارع ويكون باختلاف اللفظين في حرفين، مع قرب مخرجهما، أما في المثال الثاني فنلاحظ أن القاف والسين ليس لهما نفس المخرج، كما أن الاختلاف ورد في وسط الكلمة وهو أيضاً جناس مضارع، وقد وظف الخطيب هذان المثالان وغيرهم من الأمثلة للدلالة على أن الحياة عبر والمقام بها لا يطول ولا يدوم فالسَّام يأتي بعد المقام، وإنما أكثر الخطيب من الجناس للتشديد على حُجَّيته وبلاغته.

5. خاتمة:

في نهاية رحلتنا الممتعة في الحجاج وآلياته البلاغية في خطبة ابن الجنان نخلص إلى أن:

- قراءة التراث البلاغي العربي وفق مقاربات نقدية حديثة، يفيد الباحث والمتلقي والدارس.
- مصطلح الحجاج، مفهوم لا يُحصر، فقد ارتبط بالعديد من المصطلحات، وكثير من العلماء يعتبرها مفاهيم مرادفة له، نذكر منها (الجدل، الحوار، البرهان، المناظرة).
- الخطب الأندلسية مليئة بالأساليب الحجاجية البلاغية (الطباق، الجناس، السجع، الكناية، الاستعارة، التشبيه، الاستهلال)، باعتبارها تقنيات تحوي جمالية وإبداعاً.

- الخطابة فنّ نثري مفيد ومعبر يساهم في الحثّ على اتباع الدّين واجتناب المنكر، وهي ذات خصائص وسمات وأوصاف غاية في الفنّ الكتابي، مثل السّجع، والجناس، والتّضمن، والرّمزية.
- وظيفة الطّباق الحجاجيّة هي توضيح المعنى وتدعيمه بقوة الحجّة.
- حجاجيّة السّجع تنبع من كونه يحقق في الكلام إيقاعاً رناناً ومنغماً، وبنية تطريزية تجعل النّص وحدة منسجمة الأجزاء، ومتلاحمة الأصوات، ومعتدلة المقاطع، فتميل إليها النّفس كلّ الميل، بالفهم والتّدبر والتّصديق.
- حجاجيّة الجناس ترجع إلى تلك الدّهشة والمفاجأة غير المتوقّعة، التي تُحدث في النّفس عند إدراكها للمعنى الجديد، ووقوفها على حقيقة الاختلاف الدلالي الخفي بين اللفظتين المتجانستين.

الهوامش:

1. عبد الله صولة، 2011، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، ط1، ص13.
2. المرجع السابق، ص68.
3. بن عيسى طاهر، دت، تيسير البلاغة في كتب التراث، المحرر الأدبي للنشر والتوزيع والترجمة، الشارقة، دط، ص29.
4. أبو الحسين أحمد بن فارس، دت، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، دط، ج1، ص301.
5. Ch. Perelman et tyteca, 2008, Traité de L'argumentation, ed.université de Bruxelles, P9.
6. محمد الولي، 2011، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد40، العدد2، ص35.
7. محمد الولي، 2006، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، ص357.
8. محمد الولي، المرجع نفسه، ص357.
9. محمد الولي، المرجع نفسه، ص355.
10. محمد الولي، المرجع السابق، ص35/34.
11. فيليب بروطون، 2013، الحجاج في التواصل، تر: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، ص20.
12. أرسطو طالس، 1959، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تح: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص9.
13. أحمد محمد الحوفي، دت، فن الخطابة، نهضة مصر، القاهرة، ص5.

14. ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، 1992، الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، ص670.
15. ينظر: المرجع نفسه، ص671.
16. حسين هنداي، دت، أشكال الخطاب النثري الأندلسي، مؤسسة هنداي، دط، ص44 وما بعدها.
17. ينظر ترجمته في: ديوانه، 1990، تح: منجد مصطفى بهجت، الموصل، 9/1990، الإحاطة في أخبار غرناطة ج2، ابن القاضي، 1971، درة الحجال في أسماء الرجال، 236/2.
18. لسان الدين بن الخطيب، 1424، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج2، ص233.
19. الغبريني، 1979، عنوان الدرّاية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج1، ط2، ص349.
20. ينظر: شوقي ضيف، 1989، عصر الدول وإمارات، الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ص484-486.
21. ينظر: حسين هنداي، المرجع السابق، ص47 وما بعدها. وينظر: عبد الرحيم حمدان حمدان، 2012، الخطابة الدينية في الأندلس، موقع ديوان العرب، 2021/11/24 الرابط: www.diwanalarab.com/ الخطابة الدينية في
22. المقري، 1998، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، مجلد7، ص427.
23. أحمد مطلوب، 2006، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، ج3، ص19.
24. أبو البقاء العبكري، 1963، الكليات، بولاق، القاهرة، دط، ص317.
25. ينظر، ابن معصوم المدني، 1969، أنوار الربيع في أنواع البديع، تح: شاكر هادي شكر، مكتبة العرفان، كربلاء، العراق، ط1، ص385.
26. ابن البناء المراكشي العددي، 1995، الروض المربع في صناعة البديع، تح: رضوان بن شقرون، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، دط، ص97.
27. أحمد مطلوب، المرجع السابق، ص20.
28. محمد طروس، 2005، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، المغرب، ط1، ص29.
29. سامية الدريدي، 2011، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، ص347.
30. المقري: المصدر السابق، ص427.
31. عبد العزيز عتيق، دت، علم البديع، دار النهضة العربية، دط، ص173.
32. عبد العزيز عتيق، المصدر نفسه، ص175.
33. عبد العزيز عتيق، المصدر السابق، ص175.
34. المقري، المصدر نفسه، ص427.

35. حسين هندراوي، المرجع السابق، ص48.
36. ق: بمزاياها بمصميات.
37. المقري، المصدر السابق، ص428.
38. المقري، المصدر نفسه، ص 428
39. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، ص585.
40. صابر الحباشة، 2008، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للطباعة والنشر، ، سورية، ط1، ص51.
41. أحمد مصطفى المراغي، دت، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، ، بيروت، ط4، ص360.
42. أحمد مصطفى المراغي، المرجع نفسه، ص360-361.
43. ق: القرارة.
44. المقري، المصدر السابق، ص427.
45. المقري، المصدر نفسه، ص427 وما بعدها.
46. أبو هلال العسكري، 1989، كتاب الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط1، ص16.
47. جلال الدين السيوطي، 2008، إلتقان في علوم القرآن، تح: شعيب الأرناؤوط، عناية مصطفى الشيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، ط1، ص605.
48. المقري، المصدر السابق، ص427.
49. المقري، المصدر نفسه، ص428.
50. على الجارم، 1964، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة البيان المعاني البديع، دارالمعارف، ط15، ص264.
51. محمد عبد المنعم خفاجي و عبد العزيز شرف، 1992، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، بيروت، ط1، ص 160.
52. أحمد مطلوب، 1975، فنون بلاغية البيان والبديع، دار البحوث العلمية، ، الكويت، ط1، ص223.
53. المقري، المصدر السابق، ص428.